أشكال الدعم البابوي لإيطاليا في صراعها ضد فرنسا على القدس (١٨٧٠-١٩٢٢) دور الإرساليات الطليانية

أ. د. علي شعيب
رئيس الجامعة الحديثة للإدارة والعلوم

قلما نال موضوع اهتمام الباحثين ورجال الفكر والسياسة، ما ناله موضوع الصراع الدولي على بلاد الشام وخصوصاً فلسطين، وظهر جلياً أن التنافس البريطاني – الفرنسي استأثر على مجمل ما صدر من مؤلفات وأبحاث. وبمعنى آخر، كان هناك شبه تغييب لدور ايطاليا، فما نجده ليس الا نتفاً متناثرة على بعض الصفحات.

مع العلم أن ايطاليا لم تكد تتكون كدولة وطنية في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، حتى تطلعت للعب دور الدولة الامبريالية ذات المطامع الاستعمارية القومية. وأخذ ساستها ومفكروها يضعون أسس التحرك الاستعماري الذي كان يمتلك العناصر الأولية في الأيديولوجية الامبريالية. وتسارعت التصريحات لصالح التوسع في ما وراء البحار، فقد طالب الزعيم مازيني بمكانة لايطاليا في آسيا وافريقيا كونها مؤهلة لدور عالمي وديني. فيما شدّد (Carpi) كاربي في كتابه (الهجرة) Del émigrazione «ان الشعب العظيم الذي لا يمد تأثيره وممتلكاته في رحاب البحار، سيزول عاجلاً أو آجلاً وسيصبح عالة على الأمم الأخرى»[١].

وكون ايطاليا دولة كاثوليكية ومركزاً للكرسي الرسولي، فإنها راحت تنازع ما حصلت عليه فرنسا من البابا بحق حماية الكثلكة في الشرق، وأظهرت بحماس رغبتها في التدخل في الحرب الطائفية في جبل لبنان عام ١٨٦٠. وتؤكد الرسائل الثلاث في المحفوظات

(١) J. L. Miege: *L'impérialisme Colonial Italien de 1870 à nos jours*. Société d'édition d'enseignement supérieur. Paris. 1968. p.13 et 23.

السرية للفاتيكان في القسم التابع لأرشيف القصادة الرسولية في جبل لبنان، الاستجابة الايطالية للنداءات من أجل التدخل في أحداث جبل لبنان.

فالرسالة الأولى التي كتبها الكونت كافور رئيس الحكومة الايطالية بتاريخ ١٣ آب ١٨٦٠ إلى المركيز D. Azeglio، الذي بدوره أرسلها إلى جون رشيل وزير خارجية بريطانيا، تناولت مطالبة ايطاليا المشاركة مع الدول الكبرى لوضع حل نهائي لأحداث جبل لبنان.

أما الرسالة الثانية التي كتبها كافور بتاريخ ١٩ تشرين الأول من العام ١٨٦٠، والتي أرسلت إلى وزير خارجية بريطانيا، يعقب فيها على رسالته الأولى ويؤكد على حق بلاده المشاركة في حل المسألة في جبل لبنان، والحاحها على الاطلاع الكامل على المفاوضات السرية المتعلقة بهذه المسألة بالذات بين الدول الكبرى والسلطنة العثمانية.

لكن رسالة الجنرال دوراندو إلى صفوت باشا بطلب من الكونت كافور في ٢٢ أيلول ١٨٦٠، تدور حول حقوق ايطاليا بالتدخل والمشاركة في وضع الحلول المناسبة من أجل حماية الرعايا المسيحيين في الجبل اللبناني[١].

وعندما قررت الحكومة الفرنسية التدخل العسكري بحجة حماية مسيحيي الشرق أثناء الأحداث الطائفية في جبل لبنان «مشددة على هدفها الانساني، كان الرأي العام الكاثوليكي الداخلي لا يزال متأثراً بالقضايا الايطالية، لا يفكر سوى في مساعدة الكرسي الرسولي، ولم يرَ في بادئ الأمر سوى عملية تضليلية»[٢].

ويعود الفضل في هذا المنحى من التفكير إلى الموقع الذي كان يحتله الكهنة الطليان في الشرق، اذ كانوا يشغلون جميع المراكز الكهنوتية الهامة في هذه المنطقة، فضلاً عما تركه التجار البندقيون والجنوبيون من انطباع جيد في علاقتهم مع المشرقيين. وكانت فرنسا تشعر بخطورة هؤلاء على نفوذها في الشرق، لذلك حاول لويس الرابع عشر العمل على جعل قادة الارساليات الكاثوليكية ذات الأغلبية الايطالية، والذين كانوا «يختارون من حثالة الأديرة الايطالية»، بيد الفرنسيين[٣].

لكن قبل انتقالها إلى مرحلة الغزو المباشر، حاولت ايطاليا أن تتماثل مع أساليب الدول الأوروبية الاستعمارية، أي خلق مناخ يتقبل وجودها في منطقة مزمع استهدافها. فلم تعكس

(١) Archivio segreto vaticano, *Delegazione Apostolica del monte-Libanon*. Vol 229. Fasc.3.

(٢) دومينيك شفاليه، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا، ترجمة منى عاقوري، دار النهار، بيروت، ١٩٩٤، ص ٤٩٣.

(٣) م.ن، ص ٤٥٠–٤٥١.

عداءها للكهنوت في نشاطاتها في الشرق، بل دخلت في منافسة مع فرنسا حتى تتقبل مشاركتها في حماية البعثات التبشيرية الكاثوليكية في السلطنة العثمانية. لذلك طرحت مبدأ التمييز بين نوعين من الحماية، الحماية على الأفراد وهي من اختصاص الدول التي ينتمي اليها هؤلاء الأفراد ومهما تنوعت مهمتهم (دينية أو مدنية) في السلطنة، والحماية على المؤسسات التبشيرية الكاثوليكية، وتبقى من اختصاص فرنسا بموجب نظام الامتيازات لعام ١٧٤٠ المادة ٣٢.

وحسب قنصل فرنسا G. Outrey أنه منذ العام ١٨٧٠، تاريخ قيام أول قنصلية ايطالية في القدس، تحولت هذه القنصلية مركزاً للعداء ضد الوجود الفرنسي[١]. وبعد هذا التاريخ دخلت المملكة الايطالية في منافسة على دعم الارساليات الكاثوليكية وتأسيس المدارس، لأن السيطرة على المدرسة يعني السيطرة على الجيل الناشئ وجذبه، أي القدرة على التأثير بالأجيال القادمة وتحديد أهوائها السياسية. و «بدون شك لم يكن للارساليات الا دور تعبيد الطريق لمؤسسي الامبراطوريات الاستعمارية»[٢]. وما خوض ايطاليا المواجهة أولاً في المجال الثقافي الا بهدف توسيع رقعة المعرفة بلغة الدولة النازعة للسيطرة.

ويبدو في هذه المرحلة أن التنافس بين الطوائف المسيحية في القدس لم يبقَ محصوراً في دائرة السلك القنصلي للدول الأوروبية، بل انخرطت فيه البعثات التبشيرية. وكانت العصبية القومية تتخفى خلف الممارسات الدينية، وانعكست في مرآة منافسة الدول في السلطنة العثمانية، مشاجرة لا نهاية لها بين البعثات الدينية المختلفة. اذ حصلت خلافات ومشاحنات من جراء امتلاك هذه أو تلك (موضعاً من المواضع المقدسة)، أو بسبب تقسيم الأرباح الواردة من زوار الأماكن المقدسة، أو لغيرها من الأسباب. وكانت احدى هذه الخلافات التي تراءت وكأنها طفيفة، المشادة بشأن ترميم سقف كنيسة القيامة ومفاتيح المنارة في بيت لحم، ثم تحول هذا الخلاف إلى أزمة دولية خطيرة واستخدم كذريعة[٣]. كما كانت هذه البعثات تحاول باستمرار المزايدة، احداها على الأخرى، بالنسبة إلى الأموال التي تعرضها على الوالي العثماني للحصول على امتياز ما لنفسها أو لأخذه من منافسها.

هذه الحالة أعطت للأطماع الايطالية دفعاً جديداً وظف لبعث نفوذ ايطاليا في الشرق، وذلك استناداً إلى رافدين أساسيين: أولاً الرهبان الفرنسيسكان حراس الأماكن المقدسة بين

---

(١) Georges Outrey: *La protection religieuse de la France en Orient*. Première Partie. Constantinople & September 1892. P. 498.

(٢) J. L. Miege, op.cit., p.141.

(٣) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٥٩.

(١٨٤٨–١٨٧٢)، وكانوا بأكثريتهم من أصل ايطالي، وحافظوا منذ قرنين على أديرة فلسطين ونشروا اللغة الايطالية. وثانياً المبعوثان البابويان في كل من بيروت والقدس المونسنيور Piavi وبطريرك القدس جيوسبي Verlega اللذين لم يحبذا الحماية الفرنسية[١].

وكان Piavi من الذين طالبوا بعد العام ١٨٧١ بحماية أكثر من طرف أوروبي كاثوليكي على كاثوليك الشرق. ولا أحد يجهل أخطار هذه المطالبة لقوى أوروبية منقسمة حسب مصالحها. وما ابتغاه المبعوث البابوي هو اخراج فرنسا واللجوء إلى ايطاليا بعد فشل تجربة الحماية الجماعية[٢]. وهذا ما حذر من مخاطره قنصل فرنسا G.Outrey الذي رأى أن التعدد في الحماية لن يؤدي إلى وحدة في الأداء ولا في انتظام عمل المؤسسات التي «تصبح بالتالي مركزاً للفوضى والخصام على أساس قومي»[٣].

خلال تلك المرحلة أجمعت تقارير القناصل الفرنسيين في الشرق على أن بقاء الحصرية لبلدهم في الحماية على الكاثوليك في هذه المنطقة، مناط بتسمية مدبرين رسوليين من أصل فرنسي. وهذا ما لم يستجب له الفاتيكان في كل من بلاد الشام ومصر والقسطنطينية، اذ جرى اختيار مدبرين من أصل ايطالي ومن صفوف الرهبان الفرنسيسكان أو الكبوتشيين الذين تقاسموا ادارة الكنائس اللاتينية في مدن الساحل السوري[٤]. وكانت بطريركية اللاتين في القدس التي يترأسها البطاركة اللاتين الوافدون من روما، والذين كانوا بحسب جنسيتهم وولائهم الديني، يعملون بوحي من سياسة الفاتيكان التي كان همها ضمان حرية العبادة والزيارة إلى الأماكن المقدسة، والحفاظ على الأوقاف الكاثوليكية التي تديرها الرهبانيات تحت اشراف رهبان حراس الأماكن المقدسة (الفرنسيسكان). ويلاحظ أن إيطاليا تشجعت بالمساندة البابوية، وراحت منذ العام ١٨٨٠ تطالب بإلحاح بحق حماية المرسلين الكاثوليك من أصل إيطالي في فلسطين، حتى لا تهمل أي سبيل جدي يوفر لها فرصة التدخل في شؤون السلطنة العثمانية. وعندما حصل اعتداء على المبشر الكاثوليكي Barberis في بيت لحم، تدخل مدير القنصلية الإيطالية بحجة أنه ايطالي، وطالب خطياً حاكم القدس بحق حماية المبشر واستبعاد أي دور لقنصل فرنسا[٥]. وفي العام ١٨٨٧ شجعت إيطاليا على قيام «الجمعية الوطنية لإنقاذ البعثات الكاثوليكية الإيطالية»، بهدف انهاء «الهيمنة

(١) Adel Ismail: *Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban et des pays du Proche-Orient du XVII ème siècle à nos jours*. Editions des divers politiques et historiques. Beyrouth. 1978. Tome 14. N.71 le 21 février 1881. pp. 296-297.

(٢) Adel Ismail: op.cit., tome 14. No. 10 le 19 septembre 1882. p.423.

(٣) Georges Outrey: op.cit., p.497.

(٤) Adel Ismail: op.cit., tome 15. Le 18 mai 1883. pp.34-36.

(٥) Georges Outrey: op.cit., p.503.

الدينية الفرنسية» على الأماكن المقدسة، وإبدالها بوصاية من كل «الدول الكاثوليكية»[١]. وبفعل الدعم البابوي، اعتمدت مدرسة الرهبان العازاريين في القدس اللغة الايطالية كلغة للتدريس من بين اللغات الأوروبية الاخرى. بينما عجز قنصل فرنسا في المدينة عن التأثير على الرهبان الفرنسيسكان. ولم تتوقف المواجهات بين المدبر الرسولي Piavi وممثل فرنسا عند انتقاله إلى تولي مطرانية القدس عام ١٨٩٦. كما اتبع خليفتاه- وهما من أصل ايطالي ومن صفوف الرهبان الفرنسيسكان – Gandenzio وGiannini – السياسة نفسها المعادية للحماية الفرنسية[٢].

المكاسب الايطالية بعد تدهور العلاقات الفرنسية-الفاتيكانية

منذ مطلع القرن العشرين، تدهورت العلاقات الفاتيكانية – الفرنسية في أوج سعار معركة العلمانية داخل فرنسا. وكان لها انعكاسات سلبية على نشاط الارساليات الكاثوليكية في الشرق، اذ شن التيار الجمهوري الفرنسي الداعي للعلمانية حملة عنيفة ضد السياسة الفرنسية المزدوجة والمتناقضة، التي تغدق المعونات على رجال الدين ومؤسساتهم في الشرق تحت ستار دعم المصالح الفرنسية التربوية، وتخوض تصفية نفوذهم داخل فرنسا.

ويعكس نجيب عازوري، الفرنسي الميول، في كتابه «يقظة الأمة العربية» الصادر في باريس العام ١٩٠٤ وباللغة الفرنسية، بعض مظاهر انعكاسات معركة العلمانية على ممارسات فرنسا في الشرق، فيقول «...وللأسف لم تعد تهتم بالبلدان العربية وتهمل شيئاً فشيئاً موقعها في سوريا وفي كل المشرق...»، ثم يناشدها الاستمرار في حمايتها للكاثوليك الشرقيين، لأن «السيطرة على المتوسط موجودة، تحت بلاطات القيامة (كنيسة القيامة في القدس)».

وكانت فرنسا قد وقفت على الحياد حتى لا تتهم بانحرافها عن مبدئها العلماني عند اندلاع المشاجرات الدموية بين الأرثوذكس واللاتين على الاستئثار بأمكنة في كنيسة القيامة. وهذا ما حدا برجال الدين الكاثوليك في القدس، ببعث رسالة إلى البابا تناشده نزع حق الحماية الفرنسية عنهم بالقول «سواء أكان هذا معارضة (من فرنسا) لتدخل الأكليروس في الشؤون الخاصة أم مجاملة للروس، لا نريد حماية فرنسا بعد اليوم ونحن لا نستطيع أن نقبل بذبحنا احتراماً للتقاليد».

ويستنتج من كتاب عازوري أن ايطاليا سارعت لاحتلال موقع فرنسا في القدس، فيقول:

---

(١) Sergio I.-Minerbe: *L'Italie et la Palestine 1914-1920*. Paris 1970. p.153.

(٢) علي شعيب، الصراع الايطالي الفرنسي على بلاد الشام ١٨٦٠-١٩٤١، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٩.

«يجب دائماً أن نحفظ الجميل لطليان القدس على شعورهم الأبوي الذي يحركهم تجاه العرب، انهم يعاملون بكثير من العناية والاحترام الإكليروس الوطني، ولا يوفرون جهداً من أجل رفع المستوى المعنوي والثقافي للأمة»[١].

أدى تماسك فرنسا بموقفها العلماني الحازم إلى قطع العلاقات مع الفاتيكان العام ١٩٠٥، والى تبدل في الأدوار، اذ راحت ايطاليا تقترب أكثر من الكرسي الرسولي، ثم واكبت الدول الكبرى في حماسها لشراء الأراضي في القدس. وفي ٣ آب من العام نفسه، جرى توقيع اتفاقية ايطالية–فرنسية تضمنت حرية انتقال البعثات الارسالية الايطالية – وبناء على رغبتها – من الحماية الفرنسية إلى الحماية الايطالية. لكن هذه الاتفاقية لم تلجم الصراع على النفوذ في فلسطين مستقبلاً. وحسب بعض المصادر، يعزى النشاط الايطالي المتزايد في الشرق خلال هذه الفترة كمحصلة للتسهيلات التي راحت السلطنة العثمانية تمنحها للدول التي تعتبرها أقل خطراً عليها. اذ كانت ايطاليا تعتبر من الدول المحظية من بين جميع الدول الكبرى منذ تولي حقي باشا الصدارة العظمى، بل وقبل ذلك عندما تولى سفارة بلاده في روما منذ أوائل العام ١٨٩٠، وكانت تربط حقي باشا بالايطاليين روابط عديدة، منها زواجه من ايطالية وشغفه بارتياد النوادي الايطالية في الآستانة[٢].

عشية الحرب الأولى شعر فريق في الخارجية الفرنسية أن (الحماية) تشكل القاعدة الصلبة للنفوذ الفرنسي، وبالتالي يقتضي الأمر وضع خطة تعيد لنفوذهم زخمه في بلاد الشام، بما يكفل أيضاً التصدي للاختراق الايطالي المدعوم من الكرسي الرسولي في هذه المنطقة. وقد تضمنت مذكرة مدبر الشؤون السياسية في الخارجية الفرنسية إلى رئيس الوزراء بوانكريه، شرحاً مستفيضاً عن أسباب الهجمات المتعددة على نفوذ بلاده، ومنها سياسة الاحجام عن الحماية الدينية والقطيعة مع البابا. وتلحظ المذكرة أن استمرار هذه الحالة يضع فرنسا أمام خيارين: التخلي عن السياسة الاستعمارية أو اعادة الأهمية لمبدأ الحماية[٣]. وبتأثير مباشر من الزعيم الفرنسي المعروف بول كامبون Paul Cambon، شهدت أروقة الخارجية الفرنسية ولادة نظرية (حماية) فرنسا للاتين المسيحيين المشرقيين التابعين للبابوية من ذوي الجنسية العثمانية، في الوقت الذي كان نظام الحماية نفسه على طريق الانهيار الكامل، فتبعاً لاتفاقية برلين، تمَّ الاعتراف لفرنسا بحقوق الحماية

(١) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، تعريب أحمد بو ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ١٢٤–١٢٥ و ١٢٩ و١٣٢.

(٢) توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨–١٩١٤، دار طلاس، ١٩٩١، ص ٢٩٨–٢٩٩.

(٣) Adel Ismail: tome 19. N.56. le 14 décembre 1912. pp.180-182.

السابقة، لكن تم كسر احتكار فرنسا لهذه الحماية، اذ أقرت الاتفاقية حق أية دولة أوروبية في ممارسة حمايتها لرعاياها على امتداد أراضي السلطنة[١].

بالمقابل كانت فكرة التوسع خارج الحدود، على غرار الدول الاستعمارية، ناضجة بما فيه الكفاية لدى أوساط واسعة من الشعب الايطالي، ولذا تكاثرت الدعوات للقيام بالخطوة الأولى. وفي ٢٠ أيار ١٩٠٦ شنت مجلة «النادي» التي أصدرها الطبيب الايطالي (انريكو انساباتو) في القاهرة، وتحت الرعاية الأبوية لعدد من علماء المسلمين ومن بينهم الشيخ محمد عبده، هجوماً على الصليبية الجديدة والاقطاع الاستعماري...واعتبرت ان الايطاليين وحدهم قادرون على التعاون مع الشرقيين، ووحدهم بين الأوروبيين يعرفون كيف يبنون الخط المشرف في الشرق[٢].

ويبدو ذلك دعوة صريحة لاستعجال الحكومة الايطالية على أخذ المبادرة في احتلال مناطق في العالم العربي. وقد بلغت هذه الدعوة ذروتها العام ١٩١١ عند احتلال ليبيا. ثم انصرفت ايطاليا لرصد ما يحاك في كواليس أروقة وزارتي خارجية كل من فرنسا وبريطانيا فيما يتعلق بمستقبل بلاد الشام، وبالتحديد القدس. وكشف السفير الفرنسي في لندن – ٣ شباط ١٩١٣- عن مضمون اللقاء الذي جمعه مع السفير الايطالي هناك، والذي تمحور حول مدى اهتمامات فرنسا في سوريا وصحة وجود اتفاق فرنسي-بريطاني بخصوص هذه المنطقة، استناداً إلى ما أشارت اليه جريدة (الطان) من ادعاءات فرنسية تتعلق بسورية.

لم تتبدد شكوك السفير الايطالي عندما جرى نفي هذه الشائعات. وعلى الرغم من الاشارة إلى تصريح رئيس الوزراء الفرنسي بوانكريه في مجلس الشيوخ بهذا الخصوص، الا أن السفير الفرنسي في روما اضطر إلى تقديم التطمينات حول الموضوع لوزير خارجية إيطاليا[٣].

في تشرين الأول ١٩١٤، توجه السفير الايطالي في عاصمة الخلافة العثمانية برسالة إلى الباب العالي، يطالب بمنح بلاده الحقوق نفسها المعطاة للدول الكبرى في حال اجراء أي تعديل يطال نظام الامتيازات، وان يمنح الايطاليين في السلطنة ضمانات ضرورية تكفل حقوقهم[٤].

---

(١) جاك توبي، الامبريالية الفرنسية والولايات العربية في السلطنة العثمانية ١٨٤٠-١٩١٤، ترجمة فارس غصوب، دار الفارابي، ١٩٩٠، ص ١٢٥.

(٢) العلاقات العربية الايطالية من ١٩٠٢-١٩٣٠، من مذكرات انريكو انساباتو-كارلو قوتي بورشيناري، ترجمة عمر الباروني، مراجعة عبد الرحمن سالم العجيلي، الجماهيرية الليبية، ١٩٨٠، ص ٢٣.

(٣) Adel Ismail: tome 19. N.103. le 3 février 1913. pp.311-312.

(٤) Documents diplomatiques français relatives à l'histoire du Liban et de la Syrie à l'époque du mandat 1914-1946. Collection dirigée par Antoine Hokayem. Tome I. doct. 32. Le 1 octobre 1914. p.26.

الموقف الإيطالي عشية احتلال القدس

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، دخلت ايطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء في أيار ١٩١٥، بعد ابرامها اتفاقية سرية مع بريطانيا لقاء مكاسب اقليمية في السلطنة العثمانية. ومع ذلك كانت تراهن على عامل الوقت، وتطورات الأحداث لتعديل منطقة نفوذها باتجاه بلاد الشام، وبالتحديد الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين. وأدرك رئيس وزراء ايطاليا ريمون اورلاند صعوبة القضية التي يدافع عنها، لكن وإرضاء للرأي العام الايطالي الذي كان في نوبة سعار قومي شأنه شأن البرلمان ومجلس الوزراء، سعى لدى الحلفاء ومارس الضغوط الشديدة عليهم لكي يؤمن مشاركة بلاده في الحملة العسكرية البريطانية–الفرنسية التي ينتظر ارسالها من مصر إلى فلسطين.

ومع أن ايطاليا لم تحصل على أية ضمانات بخصوص مطالبها، إلا أنها ضمنت مشاركتها في قوة عسكرية في حملة الحلفاء لاحتلال فلسطين، وقد تجاوب رئيس وزراء فرنسا مع الطلب الإيطالي، شرط أن ترسل بهدف رمزي، وأن يكون عديدها بحدود ٣٠٠ جندي، وأن لا يوكل إليها أية مهمة سياسية (تحتها خط أحمر)، وبأن لا تصنف المصالح الايطالية في دائرة الخطر الخارجي بل في إطار الوضع العالمي نفسه[١]. في هذه المرحلة كانت القوى الفاعلة في القرار الفرنسي الاستعماري أكثر حذراً على مصير فلسطين. فقد رفضت الجمعية الجغرافية للدراسات الكولونيالية فصل فلسطين عن باقي سوريا، مقدمة الأسانيد على كافة الصعد التاريخية والاتنية والجغرافية. كما لفتت لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الفرنسي نظر الحكومة الفرنسية إلى الخطر الكبير الذي سيطال المصالح الفرنسية في المنطقة من جراء تدويل فلسطين. ويشدد تقرير اللجنة على أن سوريا الفرنسية تفترض فلسطين فرنسية ضمناً.

وهكذا لعبت القوى الاقتصادية والدينية الدور الناشط في التأثير على السياسة الفرنسية في المشرق. وقد كان لها روابط قوية مع كثير من أعضاء الحكومة ومجلس الشيوخ والبرلمان، وكذلك مع الدبلوماسيين في الكي دورسيه[٢].

خلال سير المعارك في الحرب الأولى، راحت تتكشف لروما أن هناك أكثر من سيناريو لرسم خارطة المشرق العربي وبمعزل عنها. فقد علمت باتفاقية سايكس–بيكو لعام ١٩١٦عن

(١) Antoine Hokayem: op.cit., doct. 189. Le 14 avril 1917. p. 218.

(٢) Ministère des affaires étrangères françaises- guerre 1914-1918. Turquie (Syrie-Palestine). V. 873. 17 juillet 1916 et V. 872. 8 avril 1916. p. 114.

طريق الخارجية البريطانية، حيث سارع وزير خارجيتها (سونينو) إلى الطلب من سفيره في لندن التحفظ عليها. وفي ٢٤ تشرين الأول ١٩١٦، بعث الوزير مذكرة إلى كل من باريس ولندن وبطرسبورغ تتضمن الرد الرسمي الايطالي على الاتفاقية، ومنها المطالبة باشتراك ايطاليا في المفاوضات مع العرب حول مستقبل منطقتي أ و ب الواردتين في الاتفاقية[١].

وفي ١٦ آذار ١٩١٧، كشف الطبيب انسا باتو اللثام عن سوابق هامة بقيت مجهولة لدى السياسيين الايطاليين، وذلك ضمن تقرير له من باريس جاء فيه «تجري الآن دراسة لانشاء الخلافة العربية وتضم كذلك فلسطين اليها (مع وضع خاص للأماكن المقدسة)، وأرض ما بين النهرين (مع وضع خاص للنجف وكربلاء). وتنشأ المملكة العربية بناء على اتفاق ابن سعود أمير الحجاز، ومبارك شيخ الكويت، والادريسي شيخ عسير، ويحي امام اليمن، وحاكم العراق، على أن يتمتع كل جزء من هذه المملكة باستقلال ذاتي واسع. وستبقى بلاد فارس مستقلة ولكنها تنقسم إلى منطقتي نفوذ انكليزية وروسية»[٢]. أما بشأن موقف ايطاليا من وعد بلفور، فقد أعلن متحدث باسم وزير الخارجية (سونينو) أن حكومته تؤيد التسهيلات لاقامة مركز وطني صهيوني في فلسطين، شرط أن لا يلحق اجحافاً بالحالة القانونية والسياسية للطوائف الموجودة سابقاً فيها. وقد عبّر كلٌ من روما والفاتيكان عن قلقهما بشأن حماية الأماكن المقدسة التي أصبحت أكثر تعقيداً[٣]. ولتبديد هذا القلق، قام قادة آخرون، ومنهم سوكالاف (ممثل المنظمات الصهيونية)، بتحركات دبلوماسية ناشطة. فقد دعا سوكالاف الحلفاء إلى مؤتمر رباعي لبحث مطالب الحركة الصهيونية، كما زار لاحقاً روما واجتمع بالمسؤولين الايطاليين والبابا متعهداً بعدم التعدي على الأماكن المقدسة[٤]. ازاء المخططات الفرنسية–الانكليزية تجاه المشرق العربي اغتنمت ايطاليا الفرصة لتكشف عن تطلعاتها في هذه المنطقة، وفي مقدمتها المشاركة مع فرنسا في حماية الأماكن المقدسة في فلسطين. ولهذه الغاية شملت حملتها الدبلوماسية كلاً من لندن وباريس والفاتيكان، فضلاً عن تقديمها مساعدات سرية للرهبنة الايطالية في القدس. وفي آذار ١٩١٧، ذكّر سفير ايطاليا في باريس وزير خارجية فرنسا Briand بالحماية المعقودة لبلده على بعض الرهبانيات في هذه المدينة. وفي ١٩ نيسان، شاركت روما في مؤتمر للحلفاء عقد في سان دي موريين، حيث طالبت بحقوق متساوية مع غيرها من الدول في الأماكن المقدسة.

---

(١) Sergio I. Minerbe: op.cit., pp.21-22.

(٢) مذكرات انريكو انسباتو، م.س، ص ١١٣.

(٣) Sergio I. Minerbe: op.cit., p.78.

(٤) عصام خليفة، الحرب العالمية الأولى والاتفاقات السرية حول المشرق العربي ١٩١٤–١٩١٨، مجلة أوراق جامعية، عدد ٢، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٧٩–١٨٠.

بريطانيا تقتنص فرصة مجاهرة إيطاليا بالحماية على الأماكن المقدسة

عندما استولى الحلفاء على القدس في ٩ كانون الأول ١٩١٧، حاول المندوب الفرنسي جورج بيكو أن يعيد لبلاده المكانة التي كانت لها قبل الحرب كحامية للأماكن المقدسة المسيحية، إلا أنه اصطدم بالايطاليين المشاركين في حملة الحلفاء سعياً منهم لتدويل مسألة الحماية. ونجحت روما في حمل الكرسي الرسولي على تسمية بطريرك جديد للاتين في القدس من الجنسية الايطالية. وتحولت زيارة الكاردينال Guistini لفلسطين إلى مظاهرة ايطالية. وفي هذه الفترة نشرت جريدة le messagero مقابلة مع المونسنيور Duchesme ورد فيها، أن القوة العظمى المؤهلة لشغل دور مهم في فلسطين ستكون ايطاليا التي تمتلك أهلية كبيرة لحكم هذه المنطقة الشائكة التعقيد، على غرار نجاحها سابقاً في معالجة المسألة الصعبة، وهي ايجاد مقر مشترك في روما للبابا وللحكومة الايطالية[١]. ويلاحظ من خلال رسائل متبادلة بين مسؤولين فرنسيين أن الوضع في فلسطين يهدد جدياً المصالح الفرنسية، لأن حكومة روما راحت تعزز فرقتها العسكرية الصغيرة الملحقة بعمليات الجيش البريطاني بعدد يصل إلى حدود ٥٠٠ جندي، بما يتجاوز القوات الفرنسية الموجودة تحت امرة De Piepape، وبما يتيح لها المشاركة في حماية الأماكن المقدسة. هذا الوضع حدا بممثل فرنسا في فلسطين جورج بيكو لتقديم احتجاج لدى الجنرال اللنبي، مذكراً أن لبلاده وحدها حق الحماية بصفة خاصة وحصرية، وفقاً لما تنص عليه الاتفاقية الدولية. وألمح ستورز (الحاكم العسكري البريطاني في القدس) إلى شعور بيكو بعدم الرضا. فيقول في إحدى ملاحظاته، أنه يشكو إلى درجة الازعاج من عدم اعتبار الوجود الفرنسي على قدم المساواة مع الوجود الايطالي، وأشار ستورز إلى رسالة مارك سايكس... والتي يقول فيها: «لقد فهمت من بيكو أنه جداً مستاء من وجوده، ومن الوضع العام للفرنسيين في فلسطين». تزامن ذلك مع ارتفاع صوت من أكثر من مسؤول فرنسي يطالب بتعزيز القوة الفرنسية في الأراضي المقدسة[٢].

وبسرعة لم تكن متوقعة، يشير جورج بيكو إلى اشتداد الحملة في القدس التي تعتبر أن الحماية الفرنسية تنتهي مع التراجع التركي عن المدينة. وشارك في هذه الحملة الطليان إلى جانب الانكليز لدى جمعية حراس الأراضي المقدسة (le custode). وحسب معلومات سرية، فإن رئيس الجمعية اجتمع بالمجلس الديني الاستشاري ونقل إليه رسالة من الرئيس العام للرهبان الفرنسيسكان يأمره بوضع نهاية للممارسات التقليدية التكريمية تجاه ممثلي

(١) Sergio I.Minerbe: op.cit., p.67.

(٢) Antoine Hokayem: op.cit., doct 261. le 15 janvier 1918. p.294.

فرنسا، وأن لا يُنشِدوا في المستقبل (le domine salvam). ورغم الانقسام في مواقف المجتمعين الذين فضلوا انتظار تعليمات جديدة من الكرسي الرسولي، فان الحملة –حسب بيكو- تبدو جدية ومستمرة. وقد حمَّل Dagostino قائد الفرقة الايطالية في فلسطين مسؤولية ذلك، ودير الراهبات المخلصيات مسؤولية الحوادث التي ستحصل في الكنيسة (كنيسة المهد). ويعزو بيكو حجج الرافضين للحماية الفرنسية إلى عدم فائدتها في بلد أصبح تحت السيطرة المسيحية[١].

لم تكن بريطانيا منزعجة من الممارسات الايطالية وغيرها ضد الحماية الفرنسية، لأنها كانت مصممة على تحقيق مشروعها الخاص بفلسطين، وهو تحقيق وعد بلفور. واغتنمت كل فرصة لنزع صفة الشراكة مع حليفتها فرنسا للاستفراد بالقرار. فقد سهلت الارساليات الأنكليكانية حرية الحركة في الأراضي المقدسة. وعند حصول الصدامات بين الارساليات المسيحية للسيطرة على كنيسة القيامة، اتخذ الجنرال اللنبي قراراً برفض كل تمثيل قنصلي لكل من فرنسا وايطاليا في فلسطين، وحصر كل السلطات بشخصه، ومنها مسؤولية حماية الطوائف المسيحية والإسلامية كلها، واعتبر ممثل فرنسا جورج بيكو مجرد مستشار له للشؤون العربية والسورية.[٢] ويترتب على هذا القرار تغييب سياسي وعسكري لفرنسا. وبهذه الصفة لا يحق لجورج بيكو التدخل المباشر للدفاع عن المصالح الفرنسية، والمطالبة بتشريفات عائدة لبلده في الأديرة والكنائس الكاثوليكية في الشرق.

في كل حال، لم تكن الطريق ممهدة أمام الفرنسيين لاستمرار حمايتهم على الأماكن المقدسة. ان ايطاليا المدعومة بشكل فعال من الكرسي الرسولي، كانت عازمة بحزم على انتزاع الحماية منهم. ووصل الأمر إلى حد نشوب توتر بين القوات الفرنسية والايطالية، أعقبه خلاف شديد ليلة رأس السنة بين قائد القوة الايطالية Dagostino وممثل فرنسا بيكو. ولم تسوَّ القضية الا عندما تدخلت الجالية اليهودية الايطالية التي حصلت على استبدال Dagostino بالكولونيل Gustavo Pesenti [٣].

لم تركن فرنسا لمحاولات تقليص نفوذها التاريخي في الشرق العربي، ولا سيما حمايتها للكاثوليك ومراكز عبادتهم. فقد سارع جورج بيكو إلى اعتبار ما اتخذه الجنرال اللنبي من قرارات كأنها لم تكن، اذ ذهب إلى قداس الأحد الاعتيادي بصفته ممثلاً لوطنه، وأعلم (le custode) وباقي الطوائف الكاثوليكية بأن لا شيء تغير، واستقبل الفرنسيين والمحميين،

(١) Idem doct 262. Le 20 janvier 1918. p. 296.

(٢) Antoine hokayem: op.cit., doct 265. Le 26 janvier 1918. p. 300.

(٣) Sergio I. Minerbe: op.cit., pp.210-213.

وزار المؤسسات الارسالية بهذه الصفة. أما في باريس، فقد طالب كل من رئيس الوزراء كليمنصو ولجنة آسيا الفرنسية بتعزيز الفرقة العسكرية الفرنسية في فلسطين بالعديد، بما يسمح لها بدور ناشط[١].

ومن جهة أخرى، أعلمت فرنسا ممثلي الحركة الصهيونية أن اجراءاتها في الأراضي المقدسة لا تطال المخطط الصهيوني، وأن التفاهم تام مع الحكومة البريطانية بما يتعلق بالاستيطان الصهيوني في هذه المنطقة[٢].

أحرز الحزم الفرنسي في وجه الاجراءات البريطانية بعض النجاحات، اذ جرى ابعاد الجنرال الايطالي إلى حيفا. واستحصل السفير الفرنسي في لندن على اعتراف وزير الخارجية البريطانية بالوضع الخاص لفرنسا في الأماكن المقدسة، وبالتشريفات التقليدية العائدة لممثليها لدى الارساليات الكاثوليكية. وبمعنى آخر، ينحصر دور ممثل فرنسا بالاهتمام في كل ما يتعلق بالمصالح الفرنسية في المؤسسات العلمانية والدينية والتجارية.

ان تقبل انكلتره للمطالب الفرنسية لم يأخذ مساره إلى التنفيذ العملي، وكعادتها راحت تماطل لكسب الوقت بالترافق مع الاستعداد لمواجهة الخصم بحلف مع آخرين. وكانت ايطاليا، استناداً إلى دعم البابا، مستعدة للعب دور الآخرين. لذا رفضت لندن السماح بتعزيز القوة الفرنسية في فلسطين بحجج مختلفة، منها رفض طلب مماثل من قبل روما، وصعوبة التموين لأن هناك فرقة هندية مؤلفة من ٣٠٠٠٠ ألف جندي ستصل، فضلاً عن التحضيرات لاستقبال فرقة يهودية في طريق الاعداد[٣]. وفي ١٤ آذار ساقت لندن ذريعة أخرى تتعلق بعدم أهلية خطوط النقل لتعزيز الجبهة بقوات اضافية، وطلبت تأجيل الموضوع لحين انجاز خطوط السكك الحديدية[٤]. وحسب مصادر فرنسية، وصلت في هذه الفترة إلى فلسطين فرقة يهودية من ألف جندي قادمة من لندن، على أن يعقبها وصول جنود من الولايات المتحدة لكي يصل العدد إلى حدود ١٠ آلاف[٥]. وبحسب المصدر نفسه، ان الادارة التي سوف تحكم فلسطين بعد احتلالها من قبل قوات الحلفاء تتألف بأغلبيتها من اليهود الشرقيين مع قلة من الانكليز.

(١) Antoine Hokayem: op.cit., doct 267. Le 28 janvier 1918. p.303.

(٢) Idem doct 272. 9 février 1918. p.302.

(×) لقد درجت العادة منذ القرن ١٩ أن تقيم الرهبنة الكاثوليكية للقناصل الفرنسيين في الشرق، لقاء الحماية الفرنسية التي يقدمها هؤلاء لها، قداساً تكريمياً عرف بالقداس القنصلي، يتمتع فيه القنصل بكرسي الصدارة ويقدم الآباء له التكريمات الطقسية، كالتبخير مثلاً وتقديم الانجيل والصليب له ليقبلهما.

(٣) Idem doct 290. Le 12 mars 1918. p.328.

(٤) Idem doct 293. Le 14 mars 1918. p.330.

(٥) Idem doct 285. Le 7/3/1918. p.324.

أمام هذه الصعوبات، كانت السلطة في باريس ترى أن تهديد حمايتها على الأماكن المقدسة يمكن تسويته على أرضية الاعتبار لاتفاقها مع لندن، ومن ثم على ضرورة تعزيز القوة الفرنسية في الشرق، بهدف افهام الانكليز وبصورة واضحة بأن ايطاليا لا يحق لها التماثل مع فرنسا لارسال قوات اضافية إلى القدس. وازاء ذلك، تدخلت لدى روما لردع ممثليها العسكريين في الأراضي المقدسة عن العمل ضد نظام الحماية الفرنسية، تمشياً مع التأكيدات التي أعطيت لسفيرها في ايطاليا العام ١٩٠٧ بعد تسوية الحماية على بعض المؤسسات الايطالية الدينية في السلطنة العثمانية. كما تدخلت باريس لدى حليفتها بريطانيا لوضع حد للمكائد الايطالية وللرهبان الطليان ومؤيديهم[١].

كذلك رأت فرنسا ضرورة الوقوف على وجهة نظر الكرسي الرسولي، ورد ذلك في رسالة بعث بها سكرتير وزارة الخارجية Cochin إلى الكاردينال Caspari الذي أجابه، أن زوال السيطرة العثمانية يستتبع زوال الحماية الدينية الفرنسية في الشرق، لأن الحماية كانت بسبب وجود سلطة عثمانية قائمة...

أما بالنسبة للحماية السياسية في فلسطين، فانها تختلف عن الحماية الدينية ولا تدخل في صلاحيات الكرسي الرسولي، الذي يتمنى أن تتجنب الاتفاقيات المقبلة الصراعات بين الأمم وتحترم الحقوق المكتسبة[٢].

في هذا المسار الذي انتهجه رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو، يبرز المزيد من الامعان في تجاهل أمرين:

أولاً: عدم استيعاب باريس الظرف الجديد بعد احتلال فلسطين من قبل الحلفاء والذي فرض هيمنة انكليزية آحادية الجانب. وكذلك عدم اكتراث بأهمية الشرعية البابوية التي شكلت احدى أهم مرتكزات نفوذ فرنسا في الشرق والتي راحت تساند حالياً ايطاليا، ما سمح لها بالقدرة على المنافسة في هذه المنطقة لتطلق عدة خطط على الصعد الاقتصادية والتربوية[٣].

ثانياً: تجاهل الحكومة الفرنسية الملاحظات الواردة في تقارير البعثات الدبلوماسية الفرنسية في كل من لندن وروما والممثل الفرنسي في القدس، والتي تتمنى على الحكومة الفرنسية التوجه المباشر إلى الفاتيكان للحصول منه على تشريع الحماية الفرنسية السابقة على الكاثوليك في الشرق.

---

(١) Antoine Hokayem. Op.cit., doct 262 et 263. Janvier 1918.

(٢) Idem doct 276. Le 18 février 1918. p. 311.

(٣) Sergio I. Minerbe: op.cit. p.33.

ففي رسالته إلى الخارجية الفرنسية، يحمل جورج بيكو جزءاً مما يتعرض له النفوذ الفرنسي في القدس إلى حكومته التي يعتبرها ضعيفة في مواجهة الحملة ضدها في هذه المدينة. ويخلص للقول «لا نستطيع أن نحافظ على حقنا في الحماية الفرنسية في الشرق ونقطع في الوقت نفسه علاقتنا بالكرسي الرسولي... نحن معرضون في الوقت الحاضر لهزيمة، وعلينا أن نرضخ للواقع، وأن نعي الهزائم اللاحقة. غداً سنخسر نفوذنا في فلسطين، لكن بعد غد سنخسره في سوريا.. واذا لم تعمل الحكومة على تغيير الوضع العسكري القائم، فمن الأفضل أن يوضع حد لوجود بعثتنا لأن هذا الوجود أصبح بلا فائدة»[١].

وفي رسالته إلى الخارجية الفرنسية بتاريخ ٢٤ كانون الثاني ١٩١٨، يحث سفير فرنسا في روما حكومته على مواجهة الفاتيكان «ما هو مؤكد أن رهبان الفرنسيسكان في القدس لم يتخذوا موقف العداء للحماية الفرنسية لو أن ذلك يثير استنكار البابا. فهو في هذا الظرف منهمك قليلاً بالمصلحة الفرنسية.

إن البابا وسكرتيره اغتنما وجودنا العسكري الضعيف في فلسطين وزوال السيطرة العثمانية عنها لرفض حمايتنا. لقد استغلا هذه الوضعية كأداة ضغط كي يجبرونا على اعادة العلاقات الدبلوماسية معهم. وهذه لعبة مؤكدة».

وأخيراً يقترح السفير في رسالته «أن الوسيلة الوحيدة لتغيير الموقف البابوي، هو اشعاره بغضب كاثوليك فرنسا عبر تحريف النصوص الصادرة عن الفاتيكان لتقديمها للرأي العام في الصحافة في جو ملائم نسبياً»[٢].

إن تقاطع المعلومات في تقريري البعثتين الدبلوماسيتين حول دور الفاتيكان، كان يعني أن حل مسألة الحماية ليست في توجه الحكومة الفرنسية إلى كل من لندن وروما، بل إلى الفاتيكان لما يملك من قوة تأثير على شريحة كبيرة من المؤمنين في المجتمعات الكاثوليكية وارسالياتهم الدينية، فهو من أطلق مقولة زوال الحماية بزوال السلطنة العثمانية، وان مكائد بعض رجال الدين الكاثوليك في الشرق لم تحصل عكس إرادته بل تتطابق معه. إن البابا Benoit XV وسكرتير الدولة خططا لاقامة بعثة دبلوماسية في القدس تسند إليها مهمة حماية حقوق الكاثوليك في الأراضي المقدسة. ومن جهتهم، وضع الرهبان الكرمليون الطليان مخططاً قائماً على الحماية الجماعية من قبل كل القوى المسيحية الكاثوليكية[٣].

(١) A. Hokayem doct 262. Le 20 janvier 1918. p.298. op.cit.

(٢) Idem doct 266. Le 24 janvier 1918. p.299.

(٣) Idem doct 288. Le 25 février 1918. p.317.

وتظهر رسالة سفير فرنسا في لندن إلى وزارة الخارجية في باريس أكثر ملامسة للواقع، اذ تشير إلى أن حق الحماية الفرنسية قائم على أسس هشة لأنه منحة من الفاتيكان، وأن القطيعة معه تفرض حكماً زوال هذه الحماية. ويذكر السفير برسالة الكاردينال Caspari بالمقابل، من أن كل القوى المسيحية الأخرى تعزز نفوذها في فلسطين بدعم من البابا، ويتحالفون لازالة حق الحماية لفرنسا. وأخيراً يحث السفير حكومته على التقرب من البابا خوفاً من الأسوأ[١]، ولا سيما بعد ورود معلومات من سفير فرنسا في روما تشير- وحسب معلومات مصدرها سفارة بلجيكا لدى الكرسي الرسولي- بأن البابا استمزج رأي الحكومة البلجيكية في شأن تولي مهمة حماية الأماكن المقدسة واحتلال القدس. ويستطرد السفير، أنه عرض غير مشكوك في أمره. ويجب وضع كبار القادة الكاثوليك والمطارنة الفرنسيين في أجواء هذه التحركات[٢]. وفي برقية أخرى للسفير الفرنسي، يتحدث عن موافقة ايطاليا من حيث المبدأ على الحل البلجيكي، لأنه يقوض الحماية الفرنسية وسيقدم شروطاً جيدة ومتطورة إلى la custodie de terre sainte [٣]. ولم يحض التوجه نحو بلجيكا بالتحفظ من قبل حكومتها لأنها تتخوف من تقديم تنازلات في أوروبا.

وأخيراً أخذت الحكومة الفرنسية بوجهة نظر دبلوماسييها، وراحت تجيش كاثوليك فرنسا الذين اتهموا البابا بعدم المحافظة على المصالح الكاثوليكية، وبسعيه للنيل من هيبة دولتهم ومصالحها. كما راحت باريس تبدد القلق الدبلوماسي الفرنسي بعدما توجهت إلى دبلوماسييها بتعليمات تشير بأن العداء للكهنوت ليس بضاعة للتصدير. وفي آذار ١٩١٨، أعلن البابا تجميد طرح مسألة الحماية على الأماكن المقدسة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وطلب من الارساليات الكاثوليكية في الشرق الاستمرار بتقديم كل مظاهر التكريم التقليدية لممثلي فرنسا في هذه المنطقة. حصل ذلك بضغط من الأساقفة الفرنسيين[٤].

لم تكن المواجهة مع الفرنسيين هي المسألة الوحيدة التي شغلت الفاتيكان، فمنذ إعلان وعد بلفور، نظر البابا benedict XV بقلق شديد إزاء النزاعات بين الفلسطينيين واليهود، وتوقع أن تترك آثاراً سلبية على نفوذ الكاثوليك في فلسطين، وجاء في خطاب له خلال شهر آذار ١٩١٩ قوله «سيزداد حزننا إذا ما وضعت الأماكن المقدسة الأكثر قدسية في الدين المسيحي تحت إشراف غير المسيحيين». فيما أكد

(١) Idem doct 288. Le 10 mars 1918. p. 327.

(٢) Idem doct 282. Le 27 février 1918. pp. 320-321.

(٣) Idem doct 299. Le 30 mars 1918. p.335.

(٤) علي شعيب، الصراع الفرنسي الايطالي على بلاد الشام، م.س، ص ٥٠-٥١.

سلفه Pie XI على حقوق الكاثوليك في القدس، وأن تكون متقدمة على حقوق الآخرين من غير المسيحيين[١].

لكن يبدو أن الموقف الايطالي بالنسبة إلى فلسطين تأثر إلى حد كبير بالتحرك الصهيوني، والذي كان له انعكاسات على أطراف أخرى غربية. وحسب الأرشيف الفرنسي، بينما كان القائد الانكليزي في فلسطين Archibal Murray يصرح «بدون شك سنسعى إلى جعل فلسطين يهودية محققين بذلك حلم الصهيونية»، في الوقت نفسه كانت الحكومة الايطالية تصرح بأنها جاهزة لدعم كل مبادرة تساعد في استيطان اليهود على أرض فلسطين، كما أن البابا أبدى تعاطفه أيضاً مع إنشاء مستعمرات اليهود في الأراضي المقدسة[٢].

عشية نهاية الحرب العالمية الأولى، نجحت فرنسا في تكريس مبدأ الحماية انتظاراً للتسوية النهائية لإرث السلطنة العثمانية بموجب اتفاقية سايكس-بيكو. وفي حين نجحت باريس في ذلك، لم تستطع روما ارسال مجرد دبلوماسي إلى فلسطين بسبب رفض الجنرال اللنبي استقباله. ومع ذلك لم تحاول لندن اغضاب ايطاليا التي كانت تتعاطى بموضوع الأماكن المقدسة نكاية بالفرنسيين. لذلك جرى استيعابها بعدما تبلغت- حسب الوثائق الايطالية المحفوظة في وزارة الخارجية الايطالية –في ١٣ حزيران ١٩١٨، أن وزير الخارجية البريطانية مارك سايكس لمح إلى احتمال فرض وصاية أميركية في فلسطين، وذلك أثناء حديث رسمي جرى بينه وبين الماركيز امبريالي السفير الايطالي في روما[٣].

وكمحصلة عامة أصيبت طموحات ايطاليا في الأراضي المقدسة باخفاق شديد، نظراً لضعف امكاناتها على المواجهة، وخضوع الفاتيكان للتوازنات الدولية. ويستتبع ذلك صعوبات ستواجهها روما عشية مؤتمر الصلح في باريس. اذ ان الحسابات البريطانية – الفرنسية لترتيب أوضاع ما بعد الحرب الأولى، يرتكز على ثلاثة عوامل أساسية تتجاوز الديني لصالح السياسي:

- كسب تأييد الولايات المتحدة الأميركية.

- مواجهة الخطر الشيوعي في المنطقة العربية.

(١) جورج اميل عيراني، البوابة والشرق الأوسط، ترجمة بولس سروع، جبيل، ١٩٩٧، ص ٩٩.

(٢) عصام خليفة، الحرب العالمية الأولى والاتفاقات السرية حول المشرق العربي، م.س،، ص ١٩٦.

(٣) زين نور الدين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، ط٢، دار النهار، بيروت، ١٩٧٧، ص ٩٥-٩٦.

- تحجيم دور مصطفى أتاتورك الذي أنعش بانتصاراته آمال الشعوب الشرقية التي رأت فيه منقذاً من استعباد «الجنس الأوروبي».

وتبين من خلال سير المداولات في أروقة مؤتمر الصلح، إصرار فرنسي-بريطاني على تهميش دور روما. فوقف رئيس وزرائها أورلاندو موقف المتفرج في المباحثات الدائرة حول مستقبل المنطقة، ولم يبدِ رأياً في مسألة تجزئة المشرق العربي، باستثناء التحفظات على الأماكن المقدسة في فلسطين.

هذا الاخفاق الايطالي دفع رئيس الوزراء إلى الاستقالة، وشكل بالتالي احباطاً عند الرأسماليين الطليان الذين وضعوا أملهم في ضم مستعمرات جديدة يخففون بها من حدة الأزمة الاقتصادية في بلدهم. وهذا ما جعل القادة الجدد أكثر واقعية، اذ اكتفوا بالحصول على امتيازات تجارية بدلاً من الحصول على مكاسب اقليمية.

بالمقابل، حصلت باريس بعد جهد كبير على حصتها في المشرق بموجب اتفاقية سايكس-بيكو. ولم تعد مسألة الأماكن المقدسة تندرج في أجندة اهتماماتها كما في السابق، وأصبحت قضية هذه الأماكن مرتبطة ببعد المخطط الصهيوني في فلسطين. رغم أن الجمعيات الاستعمارية في فرنسا وغرف التجارة فيها، وكذلك لجنة الشؤون الخارجية قد انتقدت هذه الاتفاقية بشدة لأنها لم تلحظ فلسطين فرنسية.

من المفيد أن نذكر في هذا الصدد، بأن الحماية الثلاثية من قبل الحلفاء ظلت سارية منذ احتلال القدس وحتى انتهاء مؤتمر سان ريمو في نيسان ١٩٢٠، وأنه على الرغم من ذلك، فقد بقيت الحراسة الثلاثية من قبل الجيش البريطاني والكتيبة الفرنسية والكتيبة الايطالية على باب كنيسة القيامة حتى تم سحبهم جميعاً بترتيب مشترك العام ١٩٢٢.